

المرأة الديرية

عرض بانورامي لأدوارها في السياق الاجتماعي

contact@deirezzor24.net www.deirezzor24.net
DeirEzzor24 DeirEzzor24 deirEzzor.24 D24net DeirEzzor 24

المرأة "الديرية" عرض بانورامي لأدوارها في السياق الاجتماعي



ملخّص تنفيذي

إنّ هذه الدراسة تمثّل عرضا بانوراميا سريعا لمراحل متعدّدة من تاريخ المرأة في دير الزور، مرورا بدورها في حقب تاريخية مختلفة وفي كتابات الرحّالة والمستشرقين، وإضاءة على دورها إبّان الانتداب الفرنسي، ومرورا بأدوارها في الحياة العامة، ومن ثم واقعها فيما بعد الثورة السورية، والدور المنوط بها، والذي فقد طبيعته وسيره الحثيث باتجاه الانخراط أكثر في الحياة العامة وزيادة قاعدة النساء المتعلّمات والمنخرطات في سوق العمل.

ونظرا لطبيعة الدراسة البانورامية هذه فإنّها لا تدّعي الوقوف على الهِنات في مفاصل حياة المرأة الديرية، لكنّها تُساهم في إثارة الأسئلة حول مجموع المحاور، بحيث يكون بالإمكان تناول كلّ جزئية في الدراسة كمحور منفصل وإشباعه بما يلزم للوقوف على الأمور التي من شأنها النهوض بالمرأة بشكل أكبر.

إنّ دير الزور كحاضرة، لها عمق تاريخي لم ينقطع لقرون عدة، وفيها من الشواهد والأوابد ما يدلّ على عمق الحضارة في المنطقة الفُراتية، لذلك ظلّ تأثير الحضارة يتغلغل فيها، وهو أمر تراكمي لا بد ويترك أثرا غير قليل على أجيال عدة توارثت المكان.

لكنها في جانب آخر، مجتمع عشائري طلقٌ عاش في حلّ وترحال، وكان من طبيعة الحياة العشائرية أن كانت قيودها أخفّ وطأة على المرأة من حيث هي عنصر فاعل في المنزل والحياة. سنتناول في هذه الدراسة جوانب من حياة المرأة الديرية، بسرد تاريخي قريب، وسرد لواقعها الراهن في ظلّ ما خلّفه ويخلّفه الصراع من أثر على مختلف فئات المجتمع وبخاصة النساء.

وسنصل ختاما إلى مجموعة استنتاجات هي أرضية للمقترحات والتوصيات التي ستقدّمها الدراسة، وهي مقترحات وتوصيات مفتوحة الوجهة، لكنّها تصبّ جميعا خدمة النهوض بالمجتمع في هذه البقعة الجغرافية.

مقدّمة

إنّ الحديث عن المرأة وواقعها بشكل عام في زمن الفضاءات المفتوحة على قضايا المرأة وصعود النسويّة في العالم، هو حديث صعب لما له من إشكالات، وخاصة في وقت تصاعدت فيه الصراعات في المنطقة العربية، وكان أداتها ومحرّكها هو الرجل بشكل رئيس، وكانت تداعياته على المجتمع عامة وعلى النساء خاصّة أشدّ بأضعاف.

في هذه الظروف لا يُمكن الحديث عن المرأة في إطار واحد، وكانت المقالات والأبحاث عن المرأة في غالبها دوما ذات بُعدين، فمنها ما يتناول المرأة في إطار مظلومية مركّبة من المجتمع والدين ومنها ما يتناول المرأة من موقع "زينة الحياة الدنيا" فيرى فيها مادة للجمال ومادة للاستهلاك ويتناول الجوانب المُشرقة والمضيئة فيها، حتى وإن كانت تمثّل الظاهر.

والمرأة هي ككلّ الموضوعات والقضايا، تحمل الكثير من الجوانب، لا يُمكن اقتصارها على موضوع وزاوية واحدة، ولعلّ تكريس الحديث عن المرأة في مجتمع معيّن دون تخصيص موضوع بعينه، هو من شأنه أن يكون مفتاحا لتناول القضايا والجزئيات لاحقا.

نتناول هنا واقع المرأة في مجتمع دير الزور، ولعلّ الحديث عن المرأة في بيئة عشائرية كدير الزور هو نقطة فارقة عن المرأة السورية في مناطق أخرى.

المرأة في دير الزور هي جزء من مجتمعه وقضاياها جزء من قضاياه، ولذلك ليس الأمر في أثناء الحديث عنها معسولا كما جرت عادت اللغة العمومية التي تُسدِل ستارتها على الموضوعات المجتمعية، لكنّ المرأة كانت حاضرة دوما، سواء كان هذا الحضور فاعلا أم منفعلا.

المرأة في المجتمع العشائري الديري، كانت حاضرة دوما في الرعي والحقل والمنزل، وهي أمور تشاركت بها مع الرجال، وهي أيضا التي يُنتخى بها في الشدائد والصراعات، فلكلّ عشيرة نخوة خاصة تُنادى بها، ومن النساء ما حملت اسم العائلات والعشائر.

لكنّها هي ذاتها التي يخفتُ صوتها في حضور الرجال، ويتم تزويجها لابن عمها غصبا عنها أو رضا، وهي التي تموت في حوادث الشرف.

إنّ دير الزور كحاضرة، لها عمق تاريخي لم ينقطع لقرون عدة، وفيها من الشواهد والأوابد ما يدلّل على عمق الحضارة في المنطقة الفُراتية، لذلك ظلّ تأثير الحضارة يتغلغل فيها، وهو أمر تراكمي لا بد ويترك أثرا غير قليل على أجيال عدة توارثت المكان.

لكنها في جانب آخر، مجتمع عشائري طلقٌ عاش في حلّ وترحال، وكان من طبيعة الحياة العشائرية أن كانت قيودها أخفّ وطأة على المرأة من حيث هي عنصر فاعل في المنزل والحياة. سنتناول في هذه الدراسة جوانب من حياة المرأة الديرية، بسرد تاريخي قريب، وسرد لواقعها الراهن في ظلّ ما خلّفه ويخلّفه الصراع من أثر على مختلف فئات المجتمع وبخاصة النساء.

وسنصل ختاما إلى مجموعة استنتاجات هي أرضية للمقترحات والتوصيات التي ستقدّمها الدراسة، وهي مقترحات وتوصيات مفتوحة الوجهة، لكنّها تصبّ جميعا خدمة النهوض بالمجتمع في هذه البقعة الجغرافية.

المرأة الديرية في بعض الفترات التاريخية ونظرة المستشرقين والرحّالة إليها

كانت مدينة دير الزور في فترات وحقب كثيرة مدينة عامرة، سواء قديما أو حديثا، لكن وبعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي العهد العثماني وتحوّلها إلى متصرفيّة ملحقة بالعاصمة بشكل مباشر، برز دورها كمدينة بشكل أكبر، حيث (كانت متصرّفية دير الزور إحدى ثلاث متصرفيات ممتازة مرتبطة بالعاصمة مباشرة، هي متصرفية جبل لبنان والقدس ودير الزور، وكان الاتصال البرقي التلغرافي من أهم خصاص الارتباط المباشر)[1]، وظلّت دير الزور كذلك مدينة عقدية منذ بداية العشرينيات أثناء سيطرت فرنسا عليها وحتى جلائها عن سوريا، فنما الإطار المجتمعي المديني، وذلك بالموازاة مع الإطار المجتمعي العشائري، الذي تغيّرت الكثير من أنماط عيشه أيضا منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي واستقرّت الكثير منها على ضفاف الفرات، ولا شكّ أنّ هذا انعكس بطريقة أو بأخرى بمسألة تحرّر المرأة وعدم انكفائها على ذاتها.

وعلى الرغم من الشطط الذي كان يرافق تصورات المستشرقين عن النساء الشرقيات، حيث كانت عبارة عن نساء ليالي بغداد وألف ليلة وليلة، إلا أنّ هذه النظرة كانت صنيع أدب المستشرقين وبخاصة الذين يعيشون في الخيال، إلا أنّ الرحّالة من المستشرقين تميّزوا بأنهم ينقلون خواطرهم من مشاهداتهم، فكانت لانطباعاتهم التي دوّنوها دور في نقل صورة المجتمع في فترات تاريخية معينة، لذلك وفي هذا المقام من الجيد معرفة رأي المستشرقين بالنساء، أو لنقل انطباعهم عن المرأة الديرية، وهنا يمكن التوقف عند رحلة الرحالة الإيطالي (كاسبارو بالبي) بين حلب والهند في العام 1579م التي مرّ خلالها من دير الزور، حيث يقول: (في المساء توقفنا عند الضفة اليمنى لنهر الفرات في مدينة تدعى (الدير)، وكانت تسمى قديماً (ميناء السلسلة) ويقيم في هذه المدينة سنجق

---

[1] محمد جمال باروت - التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية - أسئلة وإشكاليات التحوّل من البدونة إلى العمران الحضري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات, ٢٠١٣/٠١/٠١ - ١١٩٨ من الصفحات ٦٧

تركي وقاضٍ، وهي عامرة بالسكان من رجال أشراف ونساء بارعات الجمال لهنّ بشرة بين بيضاء وسمراء، وهنّ أكثر جمالاً من أي موضع آخر في تلك الأرجاء)[٢]، كما يبدي المؤرّخ والرحالة الهولندي ليونهارت راوولف انطباعا مُشابها حيث يقول بأنهم (أي أهل الدير ونساؤها) (جميلو الصورة)[٣].

من خلال هذه الملاحظات أو الانطباعات التي أوردها رحّالتان مستشرقان، يمكن أن نستشف أنّ النساء الديريات كانت حاضرات وغير متواريات.

إلا أنّ وصف الرحّالة البريطانية الليدي آنت بلنت للبدويات والنساء القبليات في عام 1878 يبدو ملفتا، إذ أنّها تتحدّث عنهن في أكثر من موقع، ويمكننا أن نورد وصفها عن النساء الفراتيات البدويات: (أما بالنسبة للفتيات فهنّ من الجميلات... وهنّ عادة بوجوه صبوحة، يُحضرن الحطب ويسحبن الماء وينصبن الخيام ويهدمنها، ويحلبن النعاج والنوق ويقمن بعمليات إعداد اللبن ويبخن الطعام ويعشن بمعزل عن الرجال ولكن لا يُحجر عليهن أو يوضعن تحت المراقبة، وكلّ من صادفناهنّ وجداهنّ يعملن بهمّة عالية وبمعشر حسن إذ يختلطن ويزرن خيام بعضهن بعضا ومعهن الأطفال، ولديهنّ القدرة على الاختلاط بالأقارب الذكور كلّ حسب درجة قرابته).

وهذا الوصف ينطبق على البدو الرحّل على ضفاف الفرات وبالأخص دير الزور، وهي المواقع التي تذكرها الليدي في رحلتها[٤].

---

[٢] رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي إلى حلب – دير الزور – عنه – الفلوجة – بغداد سنة ١٥٧٩، عربها عن الإيطالية الأب د. بطرس حداد، الدار العربية للموسوعات، ط ١، ٢٠٠٨، بيروت لبنان، ص ٣٩.

[٣] دير الزور؛ حضارة إنسانية وتاريخ مطموس، أحمد طلب الناصر، مركز دراسات مينا، آخر زيارة للموقع ٢٠٢٠/٦/١٠، الرابط.

[٤] قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م، للرحالة البريطانية الليدي آن بلنت، ترجمة أسعد الفارس – نضال خضر معيوف، دار الملّاح للطباعة والنشر، دمشق سوريا، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٤٢.

المرأة الديرية إبان الانتداب الفرنسي

وحكاية "إخوة بطة" و"فاطمة الجذمور"

منذ العام 1920 وحتى جلاء الفرنسيين عن سوريا، كانت دير الزور تحت الانتداب الفرنسي، وبطبيعة الحال، كانت هناك قوى عشائرية متحالفة مع الفرنسيين، لكن الفرنسيين واجهوا مقاومة شديدة وفيما يعرف في التاريخ البطولي الشعبي بمعارك أيلول (1921) مُنيت القوات الفرنسية بخسائر كبيرة ومن معهم من المتحالفين، وفي أحد هذه المعارك تم تدمير سرب طائرات فرنسية بأكملها وهي (10 طائرات)، وسيطرت القوات الفرنسية بعدها وللمرة الثانية على دير الزور لكنها منيت بخسائر فادحة.[٥]

وفي ظلّ الرفض الشعبيّ للقوات الفرنسية كانت الحالة الشعبية أيضا متأججة ضدّ الفرنسيين، إلا أنّ أهالي دير الزور يحتفظون في ذاكرتهم بقصص عن هذا الرفض الذي طال القوات الفرنسية نفسها، وطالت وجودهم ككلّ أيضا، ومنها قصتان أبطالهما نساء، والقصتان جرتا أثناء مباريات رياضية، ولعلّ أبرزها قصة (إخوة بطة) وهو انتخاء بـــ (بطة) التي تتمحور القصة حولها، حيث يروي أهالي دير الزور ما مفاده أنّه وفي العام 1937 جرت مباراة بين نادي الفرات وإحدى الفرق الفرنسية، وكان هذا اللقاء مشهورا، وتم حشد كل الإمكانيات الشعبية لإنجاحه، وفي يوم المباراة زيّنت شوارع المدينة وكأنّها في عرس حقيقي، وقبل ساعتين من الموعد كانت تتجمّع الحشود على الطريق من النادي الواقع في حيّ الحويقة وحتى المعلب البلدي الواقع أمام ثانوية الفرات حاليا موقع المتحف.

هذا اللقاء انتهى بفوز نادي الفرات على الفرنسيين بنتيجة 1/ 2، حيث سجّل الفرنسيون هدفاً وكان من عادة الفرنسيين وبعد كلّ هدف يسجّلونه أن يتم عزف موسيقى من قبل الجيش الفرنسي

---

[٥] محمد جمال باروت - التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية - أسئلة وإشكاليات التحوّل من البدونة إلى العمران الحضري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات, ٢٠١٣/٠١/٠١ - ١١٩٨ من الصفحات ١٤٨

ابتهاجاً وفرحاً بالهدف، وفي الشوط الثاني استطاع فريق الفرات إحراز هدفين، وتعالت صيحات الجمهور ما أثار حفيظة الفرنسيين، والذين قاموا وبحسب الرواية الشعبية يضربون الجماهير بلا هوادة، وهنا خرجت امرأة عجوز واسمها "بطة الحج قدور" التي جاوزت الخمسين من عمرها وقد تحزمت وهي تحمل العصا بيدها وأخذت تهزج تلك القصيدة المشهورة والتي أصبحت مثلا للفراتين عامة حيث قالت: (لا كنا احبلنا ولا جبنا) وأطلقت صيحتها المعروفة (عليهم أخوة بطة)، وحين سمع الجمهور من أهالي دير الزور صاروا يضربون الجنود الفرنسيين بالعصي والحجارة، والجنود الفرنسيون يردون بأعقاب البنادق.[٦]

وكذلك الأمر بالنسبة لقصة "فاطمة الجذمور" التي يسرد عنها أهالي دير الزور أنّها وأثناء تنظيم مباراة ملاكمة في العام 1932 من قبل نادي الجراح للملاكمة بين الملاكم فريد عليوي وأحد ضباط سلاح الطيران الفرنسي، وفي المباراة تحيّز الحكم الفرنسي إلى جانب مواطنه، وهنا أثار نقمة الجماهير فحصل صِدام بين جمهور دير الزور والفرنسيين، وكان لــ "فاطمة" دور في منع اعتقال واحد من الجمهور كان الفرنسيون يطاردونه، حيث قامت برش الفلفل الأحمر على وجهه، ما مكّن الشاب من الهرب، واقتيدت هي ومجموعة من الشباب إلى السجن في حلب في اليوم التالي، والبعض منهم اقتيد إلى بيروت.[٧]

وهذه القصص التي تمت مناقلتها شفاها وثم تدوينها، تعبّر عن رغبة المجتمع في تمجيد نساءه اللاتي قمن بمواقف بطولية بالبطولة، وخاصة فيما يتعلّق بالشجاعة في الموقف، ولا يتنافى مع القيم المجتمعية.

[٦] المرأة الديريّة وبناء المجتمع عبر التاريخ، هيئة التحرير، موقع شبكة دير الزور ٢٤، آخر زيارة ٢٠٢٠/٦/٥، الرابط.
[٧] السيرة الذهبية "دير الزور" عروس الفرات والجزيرة السورية، الجزء الاول، غسان الشيخ الخفاجي، دار رسلان، دمشق سوريا، ص ٢٩١.

المرأة "الديرية" وموقعها في العشيرة

الانتخاء بالمرأة وتشريفها



الصورة لامرأة ديرية – من أرشيف شبكة دير الزور 24

إنّ الحديث عن المرأة وعلاقة العشيرة بها لا ينطوي بالتأكيد على كل ما هو إيجابي ووردي، فرجال العشيرة قوّامون على نسائها، والكلمة الفصل هي للرجل، والمرأة تسير في ركاب الرجل، وهي لا تُستشار في جلّ الأمور، وتُزوّج من ابن عمها حتى وإن كان بغير رضاها، إلا أنّ الأمر ليس بهذه القتامة دوما، فالمرأة لها دور كبير حتى وإن لم يكن يُتاح لها ذلك دوما، ونورد هنا انطباعا للرحّالة البريطانية الليدي آنت بلنت في وصفها لمساهمة المرأة في الأمور العامة التي تعني القبيلة، فتقول: (إنّ الصفات الفكرية لنساء البادية تُعتبر أقلّ مستوى من الرجال...إلا أنّ أكثر من مُشاهَدة تُثبت أنّ في خيمة الشيخ امرأة واحدة على الأقلّ بيدها أمر تقرير السياسة العامة في القبيلة)[٨].

---

[٨] قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م، للرحالة البريطانية الليدي آن بلنت، ترجمة أسعد الفارس – نضال خضر معيوف، دار الملّاح للطباعة والنشر، دمشق سوريا، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٤٢.



كما أنّ طبيعة الحياة البدوية لقرون عدة أورثت النساء في دير الزور دورا في الحياة الاجتماعية اليومية، وبخاصة فيما يتعلّق بعملها كربّة منزل، فطبيعة الحياة البدوية جعلت من أعمالها المنزلية ذات شقين، فمنها ما هو داخل المنزل من مأكل وملبس وتنظيف، وهو ما يستدعي بقاء المرأة رهينة المنزل، لكن يُضاف إلى ذلك أعمالها خارج المنزل، وهو ما يتعلّق بالحلب وجلب دلاء الماء ونصب الخيام وهدمها، وهي أعمال ذات طابع جهري، جعل النساء يختلطن بمحيطهن الاجتماعي ويحتكن به، ويكون لهن دور فيه لدرجة ما، ويبدو أنّ لهذه السمة تأثير على دينامية علاقة المرأة بالمجتمع المحيط في المدينة أيضا، فالنساء في دير الزور لم يختبئن وراء الأسوار والجدران، بل خرجن وساهمن وكنّ جزء من الحياة العامة.

والانتخاء بالنساء هو من النقاط المضيئة في علاقة العشيرة بالنساء، فلكلّ عشيرة قصص لنساء يفخرون بها، وينتخون باسمها في النائبات، فالنخوة هي إثارة للحمية والنخوة عن أهل العشيرة، فما أن ينتخي أحدهم باسم امرأة من أي عشيرة مستنجدا أو طالبا للحماية أو إثارة للحميّة حتى تُستثار الهمم في أبناء العشيرة، وعادة ما تكون المرأة التي يُنتخى بها قوية، شريفة السمعة بحسب العرف العشائري، كما أنّ الانتخاء هو فعل علنيّ وجهور، ويترافق مع الشعور بالاعتزاز باسم امرأة ما، وهو من شأنه أن يترك أثره دوما في ذهنية أبناء العشيرة، ويُحيلنا إلى أنّ المرأة ليست "عورة" كما هي في مجتمعات أخرى.

ومن النخوات المعروفة بأسماء النساء الديريات والتي تعدّ مصدر عزة وفخار هناك مثلا (عدلة، سعدة، الكجلة، الخنة، حنكة، صبحة، شبكة، السمرة، هدلة، وضحة، نورة، شمسة، سمحة، ردسة، بطة، خرسا).



أدوار المرأة الديرية في الحياة العامة



صورة لمجموعة من المعلّمات في دير الزور عام 1959، بمدرسة غرناطة / أرشيف طلب الناصر

إنّ مركزية دير الزور كمدينة ومنذ إعلانها متصرفية عثمانية واعتمادها مركزا من قبل الفرنسيين، جعل منها مدينة نابضة بالحياة، حيث ازدهرت التجارة ومختلف أنواع الحرف، وانتشر التعليم في صفوف أبناء دير الزور ليس فقط في الكتاتيب التي تدرّس القرآن، بل في المدارس أيضا، وتُظهر صورة في نهاية الخمسينات صورة لمعلّمات في دير الزور، وهو يدلّ أولا على دخول المرأة سلك التعليم ويدلّ كذلك على تواجد النساء على صفوف الدراسة.

وتظهر إحصائيات التعليم في دير الزور في العام 1967 – 1968 أنّ الطلاب في الابتدائية هم 6277 إناث في مقابل 20795 ذكر، والمعلمون 256 إناث في مقابل 669 مدرسا ذكر، هذا في المدارس العامة وفي المدارس الخاصة كان نسبة الطلاب 378 أنثى في مقابل 443 ذكر.[٩]

وهي نسبة تساوي حوالي 30 في المائة من نسبة المتعلّمين أو الطلاب وتعكس رغبة من قبل النساء وبخاصة في المدينة على الإقبال على التعلّم في حقبة كان التعليم فيه بين صفوف المجتمع ذاته قليلا فما بالك بين صفوف النساء.

ويقسّم الكاتب سهيل نظام الدين التاريخ النسوي في دير الزور إلى أجيال هو جيل الجدّات أو بلهجة أهل دير الزور "الحبابات" وجيل الأمهات، وجيل البنات، وهي توازي تاريخيا عمر الدولة السورية، ولعلّ جيل الأمهات هو الذي أسّس لروح المرأة الديرية التي تريد أن تكون في ميادين الحياة اليومية إسوة بالرجل في مجتمع المدينة، (ففي هذا الفقر المتغطرس ظهر جيل «الامّهات» وهن والدات كلّ تمرّد وانحياز وتماه شهدته الدير مع الدولة السورية، خصوصا بعد الوحدة مع مصر وانقلاب البعث التأسيسي في 1963. وكي يكون القول منصفا، فإنّ أحد أهم أسباب ظهور هذا الجيل المتمايز هو أنّ رجال الجيل الأول دعموا بقوة تعليم بناتهن، وتقبلوا برحابة تحول أنماط المعيشة التي فرضتها هذه المبدئية المغامرة)[١٠].

ومع صعود التعليم بين النساء كان هناك خط موازٍ في الشكل أيضا، إذ إنّ الحياة التقليدية باتت تنحسر رويدا رويدا أمام الحياة الحديثة، التي كانت تظهر وتتأثر بمحيطها في مدن الجوار، ودول الجوار كذلك، (فحتى في مظهرهن، كانت نسوة الجيل الثاني يمثلن حلقة ربط بين حشمة عباءات الحبر – حرير ثقيل أسود– الباذخة بمعايير ذاك الوقت، وبين ما تحتها من أزياء ذات طابع غربي يلاحق خطوط الموضة)[١١].

---

[٩] التاريخ السوري المعاصر، عبد الكريم محمد، آخر زيارة للموقع: ٣-٦-٢٠٢٠، الرابط.
[١٠] النسوية الديرية، من الحبابة إلى العباية الحبر فالجلباب، سهيل نظام الدين، عين المدينة، آخر زيارة ٢-٦-٢٠٢٠، الرابط.
[١١] المصدر السابق.

المرأة الديرية في "الثورة السورية"



أرشيف شبكة دير الزور 24

لقد مرّت المرأة الديرية بأطوار متعدّدة منذ بدايات الثورة السورية، فكانت حاضرة في المظاهرة التي دعت إلى الحرية وإسقاط النظام، وشهدت التحوّلات في المشهد، من سيطرة الجيش الحر، ثم سيطرة تنظيم داعش، ومن ثم تحرير دير الزور من داعش، وسيطرة النظام على أجزاء من المحافظة مع حلفائها من الإيرانيين، وكذلك سيطرة قوات سوريا الديمقراطية مع حلفائها الأمريكيين على أجزاء واسعة منها، إلا أنّ حضورها يخفت كلّما علا صوت السلاح، فالمرأة الديرية أسوة بالسوريات لم تكن جزءا من الصراع، وإنما كانت وقودا له ومنفعلة وليست فاعلة، ففي وقت تبحث فيه المرأة عن دور لها في المجتمع عبر التعلّم ودخول سوق العمل وتبوء المناصب في الدولة.

في هذا الوقت وحين يعلو صوت السلاح فإنّها تعدّ الفئة الأكثر غبنا وتأثرا، حيث خسرت ما ربحته خلال سنوات طويلة، وكان لسيطرة تنظيم داعش على دير الزور دور في انكماش المرأة ودخولها في قوقعة سوداء.

فإن كانت المظاهرات أيقظت فيها الروح الثائرة فإنّ زوال تنظيم داعش كان له دور في اتقاد تلك الروح من جديد، فخلعت المرأة الديرية أسود التنظيم لتحاول النهوض من جديد، ومع أنّ الإدارة المدنية المدعومة أمريكياً تعتبر وجود النساء فيها ضرورة ملحّة، إلا أنّ هناك من يصفها بأنّها مرهونة بالشكل، إلا أنّ تواجد المرأة في الإدارة المدنية حتى وإن كان في أجزاء منه شكليا، إلا أنّ له دورا مؤثرا في مشاركة النساء الفعالة في إدارة المنطقة.

وتلعب المنظمات المدنية دورا في منح الفرصة للنساء المتعلّمات (الجامعيات – الناشطات) ورفدهن بمشاريع تدعم المرأة، فجامعة الفرات كانت تعج بالنساء من الطلاب وكانت الميادين العامة ممتلئة بالنساء في دير الزور، لذلك فهناك حلقة تحاول المرأة ترميمها، بعدما كسا سواد تنظيم داعش نهر الفرات وضفافه.

إنّ الخريطة العسكرية لتوزّع القوى في دير الزور من قوى دولية كالقوات الروسية والإيرانية والأمريكية وتحالف الدول في مواجهة داعش والقوى المحلية كالميليشيات الإيرانية وقوات النظام وقوات سوريا الديمقراطية، لها دور في عدم الاستقرار للمجتمع ككل وبخاصة النساء، اللاتي يحتجن إلى استقرار اجتماعيّ ليستطعن إكمال السلسلة التي تمضي فيها النساء منذ سنوات متعدّدة.

إنّ دمار البنية التحتية في دير الزور له دور في تدمير البنية الاجتماعية أيضا، ومن شأن العمل على ترميم البنية التحتية أن ترمّم أدوار النساء والتركيز على زيادة التعليم وعلى اعتبار أنّ البنية الاجتماعية مهيأة لتتبوأ المرأة أداور متعدّدة في الشأن العام فإنّها تحتاج إلى بعض الوقت لتتجاوز محنة الركود الذي خلّفه الصراع في جغرافية الفرات.

خاتمة (توصيات ومقترحات)

إنّ هذه الدراسة تمثّل عرضا بانوراميا سريعا لمراحل متعدّدة من تاريخ المرأة في دير الزور، مرورا بدورها في حقب تاريخية مختلفة وفي كتابات الرحّالة والمستشرقين، وإضاءة على دورها إبّان الانتداب الفرنسي، ومرورا بأدوارها في الحياة العامة، ومن ثم واقعها فيما بعد الثورة السورية، والدور المنوط بها، والذي فقد طبيعته وسيره الحثيث باتجاه الانخراط أكثر في الحياة العامة وزيادة قاعدة النساء المتعلّمات والمنخرطات في سوق العمل.

ونظرا لطبيعة الدراسة البانورامية هذه فإنّها لا تدّعي الوقوف على الهِنات في مفاصل حياة المرأة الديرية، لكنّها تساهم في إثارة الأسئلة حول مجموع المحاور، بحيث يكون بالإمكان تناول كلّ جزئية في الدراسة كمحور منفصل وإشباعه بما يلزم للوقوف على الأمور التي من شأنها النهوض بالمرأة بشكل أكبر.

وبالإمكان استنتاج مجموعة ملاحظات خلال هذه الدراسة، وهي:

- المرأة الديرية منفتحة على المحيط القريب والمحيط البعيد.
- هناك عمق حضاريّ وإرثٌ مدنيّ لدير الزور وينعكس على طبيعة المجتمع ومنها النساء.
- للمرأة بوصفها من مجتمع دير الزور المتمتع بعمق عشائري أدوار بعضها إيجابي والآخر ليس إيجابيا، لذا فمن الممكن الوقوف على تلك النقاط الإيجابية في نظرة العشائرية للمرأة.
- مجتمع دير الزور يشجّع على تعليم النساء وذلك منذ عقود، وحتى الآن، وبالإمكان التعويل على رغبة المجتمع في منح فرصة التعليم للنساء لزيادة انخراط النساء في العملية التعليمية بمراحلها المتقدّمة العليا.
- النساء هنّ جزء من الثورة المدنية، لكنهنّ ضحايا الصراع المسلّح.

وبناء على هذه الاستنتاجات فمن الممكن تقديم مجموعة توصيات ومقترحات إلى الجهات الفاعلة في دير الزور سواء المجتمعية أم المدنية أم العسكرية أم صناع القرار:

- تشجيع النساء لدخول سوق العمل وبخاصة المجالات التي لا تجد فيها موانع مجتمعية كثيرة.
- العمل مع منظمات المجتمع المدني على تأصيل الفكر المدني، وتنشيط البرامج المدنية التي تستهدف النساء.
- تشجيع إكمال النساء للمراحل التعليمية العليا، وتنشيط برامج محو الأمية للنساء اللاتي فقدن فرصة التعليم.
- دعوة الإعلام للعب دور إيجابي في متابعة قصص النساء اللاتي قمن بجهود استثنائية في سبيل الدعوة لحقوق المرأة أو دعمها لانخراط أكبر في المجتمع.

المرأة الديرية
عرض بانورامي لأدوارها في السياق الاجتماعي

